مقاومة التفكير: حين يحتكر الراعي عقول القطيع

هناك من يرى في التفكير خطراً داهماً لا لأنه يهدد الحقيقة بل لأنه يهدد سلطته، يخشى أن يتسرب النور إلى عيون القطيع، فينفض الجمع من حوله وتذوب هيبته التي صاغها من جهل مصقول بالشعارات إنه لا يكتفي بمنع الناس من التفكير بل يضع لهم قائمة بما يجب أن يعرفوه وأخرى بما يجب أن يجهلوه يصمم لأتباعه صورة جاهزة للعالم محدودة الإطار متقنة الإخراج بحيث لا يطل من خلالها سوى صدى صوته

وإن تجرأ أحدهم على كسر القالب، تولّى عنه مهمة التفكير محذراً من كتب بعينها وموصياً بأخرى تمجده وتعيد إنتاج رؤيته، كما قال الفيلسوف برتراند راسل: الرجال يخشون الفكر أكثر من أي شيء آخر أكثر حتى من الموت نفسه.
فالذي يحتكر التفكير لا يهاب الفكرة في ذاتها بل يهاب حريتها لأنها أول خطوة نحو تحرره من سلطانه، التاريخ يعج بأمثلة المُوجّه الأعلى الذي يرسم للناس ماذا يقرؤون ومتى وبأي ترتيب حتى يصبحوا صدىً منظماً لصوته، لقد فهم هؤلاء أن السيطرة على المعلومة هي الخطوة الأولى للسيطرة على الوعي وأن مصادرة الفكر أيسر من مصادرة الجسد،

كما قال فرانسيس بيكون: المعرفة قوة، ومن يوزع القوة على الجميع يخسر عرشه إن مقاومة التفكير ليست مجرد كسلٍ عقلي بل هي هندسة متعمدة للعقول تقوم على صناعة فراغٍ ذهني موجه هي أشبه بتربية الطيور في أقفاص مذهبة لا تطير لكنها تغني بما يلقنها المربي لكن الفكر بطبيعته متمرّد،

كما يخرج العشب من بين الشقوق تخرج الأسئلة من بين فراغات الصمت ولذلك قال سقراط: العقل هو الشعلة التي تنير الدرب ولكن عليك أن تجرؤ على حملها إن من يقاوم التفكير يكتب وصيةً لجيله بأن يعيش معطلاً أسيراً لمعلومة أحادية يتلقاها كما يتلقى الحجر السقوط لكن الأفكار مهما حوربت قادرة على أن تجد منفذاً قد يكون كتاباً سرياً أو حواراً عابراً أو حتى حلماً يوقظ في الروح عطش المعرفة والقائد الذي يحذر أتباعه من القراءة الحرة يعلم في قرارة نفسه أن أول كتاب سيقرؤونه بوعي قد يكون آخر كتاب يقرؤونه تحت وصايته، هؤلاء يدركون أن الكلمة الحرة إذا استوطنت عقلاً لا يمكن إخراجها منه مهما علا الصخب من حوله.

الخلاصة: مقاومة التفكير ليست انتصاراً على الآخر بل انتحارٌ للعقل

وكما قال جون ستيوارت ميل: الإنسان الذي لا يطّلع إلا على جانب واحد من القضية يعرف عنها أقل ممن لا يعرف شيئاً.